

ضوابط العمران والبنيان

(رؤية في ضوء القرآن الكريم)

د.م / يحيى وزيرى (*)

مقدمة:

إذا تأملنا سور القرآن الكريم يلفت نظرنا أن الله سبحانه وتعالى قد اختار أسماء بعض منها له ارتباط بالعمارة والتعمير، كسور: "الكهف" و"الحجرات" و"البلد"، كما جاء ذكر العمارة بلفظها أو اشتقاقها في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتَ الْمَعْمُورَ﴾ [الطور: ٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

كما جاء ذكر أسماء بعض المدن والقرى مثل بكة (مكة) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران- ٩٦]، كما جاء ذكر المدينة المنورة في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَاقِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١]، كما جاء ذكر بعض المدن من الحضارات التي سبقت الإسلام كمدينة "إرم" بالأحقاف وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١٠١﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧]، ومدينة "سبأ" باليمن في قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَآ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [النمل- ٢٢].

ولم يكتفِ القرآن الكريم بذلك بل قص علينا من خلال بعض آياته بعضاً من

(*) خبير العمارة الإسلامية والبيئة ومحاضر بكلية الآثار - جامعة القاهرة.

جوانب الحضارات المعمارية للأمم السابقة وما كانت تحويه من تقدم عمراني وحضاري كبير، لذلك فإن الهدف من هذه الورقة البحثية هو محاولة إلقاء الضوء على بعض ضوابط وأسس عمران المجتمع الإسلامي من خلال تدبر ما جاء في بعض الآيات القرآنية، من أجل توضيح الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض والتي تعتبر بمثابة الثوابت الواجب مراعاتها بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان.

أولاً: ضوابط العمران والبنيان في ضوء قصص القرآن:

قص علينا القرآن الكريم من خلال بعض سورته وآياته قصصاً لحضارات جاءت قبل بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح العلماء والمفسرون قصة الصراع بين الحق متمثلاً في رسل وأنبياء الله ومن اتبعوهم بإحسان وبين الباطل متمثلاً في القرى والأقوام الظالمة التي كفرت بأنعم الله وصدت عن سبيل الحق، في محاولة منهم لإظهار الدروس والعبر التي حواها القصص القرآني مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: من الآية ١١١]، ولم يكتف القرآن بذلك بل أمر المسلمين بالسير في الأرض والنظر في آثار الأمم السابقة وكيف كان عاقبة المكذبين بالرغم مما وصلت إليه هذه الأمم من تقدم حضاري وعمراني لم يغن عنها من الله شيئاً.

كما حمل القصص القرآني في طياته العديد من الضوابط والمفاهيم الخاصة بعمارة وعمران الأرض، والتي تعتبر بمثابة القواعد والأسس التي يسترشد بها المسلمون في كل زمان ومكان من أجل عمارة الأرض العمارة الصالحة الفاضلة، كما أرادها الله سبحانه وتعالى وأكد عليها رسله وأنبيائه في دعوتهم على مر العصور.

إن الهدف من هذا الجزء من البحث هو محاولة استنباط بعض ضوابط العمران والبنيان في ضوء ما ورد ببعض القصص القرآني، وهو ما سوف نوضحه في المحاور التالية:

١- التحذير من الممارسات الإعمارية الفاسدة:

يلفت القرآن الكريم النظر إلى ما حدث لثلاث حضارات معمارية كبرى حادت عن طريق الحق وطغت في البلاد وبطرت معيشتها حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
 وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي
 الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ
 رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ ﴿الفجر: ٦-١٤﴾، فما هي الممارسات الإيمارية الفاسدة التي جعلت
 المولى سبحانه وتعالى يصب العذاب على هذه الحضارات صبا؟.

بالنسبة لقوم "عاد" فقد كانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن
 بين عمان وحضرموت^(١)، وكانت لهم حضارة معمارية عظيمة وصفتها الآيات القرآنية
 بأنها لم يخلق مثلها في البلاد فاغتروا بنعم الله عليهم واستكبروا في الأرض، وفي ذلك
 يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ
 مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾
 [فصلت: ١٥]، ومن نماذج الممارسات الإيمارية الفاسدة أنهم أقاموا مباني العبث
 والفجور وقد أخبر بذلك القرآن الكريم على لسان نبيهم سيدنا "هود": ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
 آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ
 ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١]، فالله سبحانه وتعالى ينعى على "عاد"
 قوم "هود" أنهم كانوا يبنون بكل ريع، أى مكان مرتفع، آية أى بناء ظاهرا كالعلم لقصده
 العبث بمن يمر في الطريق من الناس، وفي ذلك استخدام للأبنية في غير ما شرع الله
 بناءها، كما يفهم من الآية أيضا أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك
 غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث^(٢).

وبذلك يمكن القول بأن استنكار الآيات السابقة للسلوك الإيمارى لقوم عاد يتركز
 على قضيتين أساسيتين متلازمتين نتجتا عن اضطراب في التصور العقائدى^(٣):

(١) الحافظ ابن كثير (١٩٨٢). قصص الأنبياء. دار الحديث، القاهرة، ص ٨٩.

(٢) أحمد محمد السعد (٢٠٠٣). ضوابط بناء المساكن في الفقه الإسلامى. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة
 والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن.

(٣) عبد الحليل أبو ضمرة (٢٠٠٣). فقه الاعمار وضوابطه في الفقه الإسلامى. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة
 والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن.

القضية الأولى: عبثية الغاية من البناء والاعمار، فعاد قد بنت المباني العظيمة بقصد المباهاة وإظهار القوة ولم تبين للحاجة ولا لغرض سليم، ولهذا استنكر عليهم نبينهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان واتعاب للأبدان واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة.

القضية الثانية: غياب التصور الصحيح الذى تستند عليه الممارسات الاعمارية، فالبناء والاعمار إنما هو لسد خلة البانى وحاجته فترة بقائه وبنيه فى هذه الدنيا، لذا فالمبالغة الشديدة فى البناء حتى يظن أن البانى مخلد فى دنياه يتضمن بدلاً للأموال واتعاباً للأبدان وإشغالاً للوقت عن المهمة الأعظم والدور الأكبر من تعبيد الخلق لبارئهم والإعداد ليوم لقائه.

أما "تمود" فقد كانوا يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأوثانك، وكانت لهم حضارة مادية عظيمة تتجلى فى بناء القصور الفخمة فى السهول ونحت البيوت فى الجبال، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَانَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، لقد تميزت حضارتهم بالرفاهية العمرانية حيث اتخذ القصور فى السهول حيث طبيعة البيئة والمناخ تختلف عن اتخاذ البيوت المنحوتة فى الجبال، فهم أقاموا أماكن صيفية وأخرى شتوية لرفاهيتهم^(١).

ولم تقتصر الحضارة التمودية على الرفاهية العمرانية فقط بل حولوا السهول إلى جنات وارفة الظلال متنوعة الثمار، فجمعوا بذلك بين فخامة العمران وإنشاء الحدائق وغرس الجنان، وفى هذه المعانى يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ

(١) يحيى وزيرى (١٩٩٢). التعمير فى القرآن والسنة. القاهرة، ص ١٤.

﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿الشعراء: ١٤٦-١٤٨﴾، فالله سبحانه وتعالى أنعم عليهم وجعلهم فى أمن من المحذورات وأثبت لهم من الجنات وفجر لهم العيون الجارية وأخرج لهم من الزروع والثمرات، كل ذلك إلى جانب البيوت القوية الآمنة سواء كانت منحوتة فى الجبال أو مقامة فى السهول.

ويأتى القصص القرآنى مؤكدا على المعانى السابقة من خلال الصراع بين الحق والباطل، بين سيدنا موسى وهارون عليهما السلام من جانب وفرعون وهامان رموز الكفر والباطل من جانب آخر، فهما هو فرعون يفتخر بنعم الله عليه وبدلا من أن يشكر يفتخر ويتعالى على قومه كما أخبرنا بذلك سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف- ٥١]، قال قتادة^(١): "كانت جنانا وأنهرا تجري من تحت قصوره".

لقد اغتر فرعون بالملك والنعم التى من الله بها عليه وكفر بإنعامه وكانت النتيجة الفساد فى العقيدة وانعكس ذلك على انحراف الممارسة المعمارية.. فماذا حدث؟، يخبرنا القرآن الكريم بأن فرعون قد أمر وزيره هامان أن يوقد له على الطين لبنى صرحا، وهو القصر العالى أو البناء العالى الذهب فى السماء^(٢)، ليظهر لرعيته كذب دعوة موسى فى إثبات الألوهية لله تبارك وتعالى، وهو ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: "وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين" [القصر: ٣٨]، ومرة أخرى يقترن الفساد العقائدى والاستكبار فى الأرض مع انحراف الممارسة الاعمارية، ويصبح "الصرح" المعمارى أداة للاستهزاء من دعوة موسى والصد عن سبيل الله.

لقد أوضحت العديد من الآيات القرآنية أن الظلم وارتكاب المعاصى والكفر بالله من أهم أسباب حلول الخراب وإهلاك القرى والأمصار مهما بلغت من درجات الرقى الحضارى

(١) انظر تفسير الآية ٥١ من سورة الزخرف فى "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي .

(٢) انظر: المعجم الوجيز (٢٠٠٠). طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر العربية، ص ٣٦٣

والعمراني، والآيات الدالة على ذلك كثيرة نذكر بعضها منها في مقامنا هذا، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِئِ حَارِبِيَّةٍ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مُعْتَلَّةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا رَبِّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وفي أحيان أخرى يجعل الله سبحانه وتعالى النتائج المعماري لبعض من هذه القرى والحضارات الكافرة عبرة لمن بعدها من الأمم، ومن أشهر هذه الحضارات حضارة عاد وثمود حيث يلفت القرآن نظر المؤمنين إلى ما تركوه من مساكن وآثار في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، فلقد جاء في السنة النبوية عن ابن عمر قال: "لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعمجنوا منها ونصبوا القدور، فأمر رسول الله فأهرقوا القدور وعلفوا العجيين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة (ناقة صالح)، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال: "إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم"^(١).

ومدائن صالح الآن هي إحدى محطات السكة الحديدية الحجازية، ولقد زارها كثير من المستشرقين وكتبوا عنها، وكان من أهم ما عثروا عليه من الآثار هو ما يعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج، وقد شاهدوا نقوشا عليها بالخط المسند الآرامي ولغتها هي العربية الشمالية التي لا تختلف إلا قليلا عن الفصحى^(٢).

أما بالنسبة لحضارة عاد فإنه في يناير من سنة ١٩٩١ م بدأت عمليات الكشف عن آثار في صحراء الربع الخالي بالجزيرة العربية في منطقة "شيسار"، وأعلن عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سمكة الجدران بأبراج في زواياها، مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) توفيق محمد سبع (بدون تاريخ). فيم حضارة في القرآن الكريم (ج ١). القاهرة، ص ١٦٧.

إلى ٩ أمتار وقطرها إلى ٣ أمتار، ويرجح العالم المصرى الأستاذ الدكتور زغلول النجار أن هذه الآثار ربما تكون لمدينة "إرم" التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم^(١).

تلك هى آثار وبقايا حضارات عمرانية عظيمة ولكنها كذبت رسولها وتشبثت بالكفر وأمعنت فى الظلم، فجعلها الله سبحانه وتعالى بقدرته أثرا بعد عين ولا يخاف عقباها، فبادت كما بادت من قبلها وان تنوعت الوسيلة، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦٥].

انه الإهلاك على أى حال، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقى حين ربط بين خراب العمران والمستوى الأخلاقى للمجتمعات الإنسانية فى قوله^(٢):

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

٢- تقوى الله أساس الممارسات الاعمارية الصالحة:

على الجانب الآخر يعطينا القصص القرآنى نماذج يحتذى بها فى الممارسة الاعمارية الصالحة التى تدعو إلى سبيل الحق وعبادة الواحد الأحد، فهامى الآيات الكريمة تصف لنا الصرح "السليمانى" الذى أقامه سيدنا سليمان لاستقبال بلقيس ملكة سبأ فى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤]، لقد كان هذا الصرح صحنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ليربها ملكا أعظم من ملكها، وحكى أبو عبيدة: أن الصرح كل بناء عال مرتفع عن الأرض وأن الممرد المحكوك الأملس ومنه الأمرد^(٣).

(١) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى:

* زغلول النجار (١٩٩٢). اكتشاف مدينة إرم ذات العماد التى تحدث عنها القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا. جريدة الأهرام المصرية (١٠/٤/١٩٩٢).

* زغلول النجار (٢٠٠٢). من أسرار القرآن. جريدة الأهرام المصرية (٧/١٠/٢٠٠٢).

(٢) يحيى وزيرى (١٩٩٠). خواطر الشيخ الشعراوى حول عمران المجتمع الإسلامى. مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة، ص ٢٠.

(٣) انظر تفسير الآية ٤٥ من سورة النحل فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى.

فالآية الكريمة السابقة توضح أن سيدنا سليمان عليه السلام قد استخدم هذا الصرح المعماري، الذي يعكس قمة الجمال والإبداع الفني، كوسيلة وأداة لدعوة ملكة سبأ الكافرة للدخول في الإسلام والإيمان بالله، وفي هذا المقام يصبح "الصرح السليماني" المبنى من الزجاج محموداً عند الله لسمو الغاية التي بنى من أجلها ألا وهي الدعوة إلى الله، في حين أن الصرح "الفرعوني الهاماني" المبنى من الآجر (الطين المحروق) مذموم عند الله؛ لأن الغاية من بنائه كانت السخرية والاستهزاء من دعوة موسى والصد عن طريق الحق.

ومن ذلك يتضح لنا معنى ومفهوم جليل في عملية البناء والممارسة العمرانية، فالعبرة دائماً بالهدف والغاية من عملية البناء بغض النظر عن فخامة المبنى أو وضاعته، أو غنى المواد المستخدمة في إنشائه أو فقرها، فالقضية ليست قضية مظهر خارجي بل هي أعمق من ذلك حيث ترتبط بالتصورات الاعتقادية للمعمرين والهدف من الممارسة العمرانية نفسها، والتي على أساسها يمكن الحكم على البنيان والعمران بالصلاح أو الفساد.

وفي مقارنة أخرى بين نموذجين لبنائين على عهد سيدنا إبراهيم خليل الله يتضح لنا كيف يكون موقف السماء من الممارسات العمرانية على الأرض، ففي الحالة الأولى يرشد الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم لمكان البيت العتيق ليرفع قواعده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، أما عن رفع قواعده البيت فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، إن الآيات الكريمة السابقة توحى إلينا بأهمية ارتباط الممارسة العمرانية بالعتيدة السليمة (ألا تشرك بي شيئاً) كشرط أساسي، إلى جانب التقوى والتواضع لله جل شأنه (ربنا تقبل منا) وفي هذه الحالة فإن السماء تعلى وتبارك هذا البناء.

أما في حالة الحياد عن منهج الله، وهي الحالة التي تمثل النموذج الثاني، فإن النتيجة

الحتمية هي تدمير البنيان والعمران كعقاب وعذاب ولو بعد حين، ونلمح هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، قال ابن عباس وزيد ابن أسلم وغيرهما: "إنه النمرود بن كنعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتل أهله فبنوا الصرح ليصعدوا منه، ومعنى "فأتى الله بنيانهم" أى أتى أمره البنيان إما زلزلة أو ريحا فخرته^(١).

إن المقارنة السابقة بين رفع وإعلاء بنيان الكعبة المشرفة وتدمير بنيان النمرود لتؤكد وتوضح موقف السماء الثابت من عمليات الاعمار على الأرض، فهي تبارك كل بنيان أسس على تقوى الله من أجل عمارة الأرض عمارة صالحة فاضلة تيسر للبشر أمور العبادة والمعيشة، كما تدمر أو تعطل كل بنيان أو عمران فاسد.

إن التقوى هي الأساس المعنوي لكل بنيان وعمران مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَقْمِنُ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، أما بعد عمارة الأرض فلا يجب أن نفتن بالمساكن والدور والعشيرة والأموال، بحيث تصيح أحب إلينا من طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإلا لا نكون قد اعتبرنا بما حدث للأمم المذكورة في قصص القرآن؛ لذلك يحذرنا الله سبحانه وتعالى من هذا بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

٣- الغاية من إقامة المدن والقرى:

في عصرنا الحديث تبنى المدن أو تقام التجمعات العمرانية الجديدة من أجل توفير

(١) انظر تفسير الآية ٢٦ من سورة النحل في الجامع لاحكام القرآن للإمام القرطبي

وإيجاد المساكن والبيوت خاصة للشباب، وبالأخص المتزوجين حديثاً أو المقدمين على الزواج، وهو هدف طيب لا غبار عليه، ولكن في الرؤية القرآنية فإن الغاية من إقامة المدن والتجمعات العمرانية الجديدة هي غاية أكثر سمواً ورقياً ولا تنحصر فقط في إيجاد المزيد من البيوت والمساكن.

ففي ملمح قرآني يتأكد لنا أن الغاية من إعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فالغرض الأساسي من إسكان سيدنا إبراهيم لزوجته هاجر وابنه إسماعيل عند البيت الحرام هو إقامة الصلاة، والصلاة هنا هي رمز وأساس لكل العبادات الأخرى، فمن أقام الصلاة فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين كما علمنا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ثم بعد ذلك تأتي باقي الأهداف من إقامة التجمعات العمرانية من توفير المأوى وفرص العمل للأجيال الجديدة.

ثم نلمح من الآية الكريمة السابقة أن أساس الإسكان والتجمع هو وجود بيت الله الحرام في هذا الوادي الذي لا يوجد فيه زرع وبالتبعية أيضاً لا يوجد به ماء، وكان الآية الكريمة تلفت النظر أن بداية وأساس أي تجمع عمراني هو وجود المسجد أولاً.

إن فكرة وجود المسجد (أو المساجد) كأساس لإقامة التجمع العمراني، سواء كان قرية أو مدينة، تتأكد أيضاً من تأمل قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فلقد أشارت الآية الكريمة إلى المسجد الحرام وهو أساس التجمع العمراني في أم القرى مكة المكرمة، وإلى المسجد الأقصى أساس التجمع العمراني في بيت المقدس.

كما أشارت آية كريمة أخرى إلى أن أساس التجمع العمرانى للمسلمين فى المدينة المنورة قد بدأ ببناء المساجد أولاً، وهو ما حدث بالفعل بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة إلى "يثرب"، فقد كان أول ما فعله عليه الصلاة والسلام أن قام ببناء مسجد "قباة" ثم بعد ذلك مسجده عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمره بعدم الصلاة فى مسجد "الضرار" الذى بناه المنافقون ضراباً للمسجد قباة الذى أسس بنيانه على التقوى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [النوبة: ١٠٨].

وقد ورد فى الحديث الشريف عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال^(١): "المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا"، ولا منافاة هنا بين الآية والحديث لأنه؛ إذا كان مسجد قباة قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أولى وأحرى أن يوصف بذلك أيضاً.

لقد أوضح القصص القرآنى أن الأساس الذى أقيمت عليه المدن المقدسة الثلاث عند المسلمين، مكة المكرمة وبيت المقدس والمدينة المنورة، هو وجود المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال، وهى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من أجل إقامة الصلاة وعبادة الواحد الأحده.

لقد فهم المسلمون الأوائل أن عمارة الأرض وتأسيس المدن والأمصار عمل تعبدى فى المقام الأول، الهدف منه إقامة شرائع الدين وسنن النبیین، وهذه المعانى وغيرها مجدها فى دعاء إدريس الثانى (عام ١٩٢ هجرية) عند قيامه ببناء مدينة "فاس" بالمغرب فى قوله^(٢): "اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وستة نبيك ما بقيت الدنيا..، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأغنهم واكفهم مؤونة

(١) تفرد به الإمام أحمد فى مسنده.

(٢) البجلاخى أمحمد (١٩٩٤). فاس ومراكش.. مدن لها تاريخ. مجلة المنهل - عدد (٥١٩)، جدة، ص ٢٦٤.

أعدائهم وأدرر عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شيء قدير"، هكذا قرأ المسلمون الأوائل آيات القرآن وقصصه فتدبروها وفهموها واتعظوا بما حدث للأمم الغابرة، وعرفوا أن الغاية من العمران والبنيان أن يكون في خدمة الدين وإقامة شرائعه وحدوده، دون فخر أو مباهاة أو مكابرة.

ثانياً: التوجه للقبلة وأثره على العمران والبنيان

في تقديمه لكتاب "تخطيط وعمارة المدن الإسلامية" يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة^(١): "ولعل من أبرز ما يميز الأنماط المعمارية الإسلامية، أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها ومرتفقاتها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة (المسجد الحرام)، أما في الأنماط العمرانية المعاصرة، أو في عمران المدن الحديثة، فلا وجهة ولا قبلة، ويصعب على الإنسان المسلم، وقد يجد عناء شديداً في تحديد القبلة، إذا خرج من المسجد وعبر الشارع، ودخل المباني المعاصرة".

إن الكلمات الموجزة السابقة توضح أحد ضوابط العمران الإسلامي التي يغفلها المعمار الإسلامي المعاصر عند تخطيط المدن وتصميم المباني، اعتقاداً أو جهلاً بعدم أهمية توجيه هذا العمران إلى جهة القبلة، بالرغم مما في هذا التوجه من الرموز والإشارات الدينية والعقائدية، إلى جانب تلافى العديد من المشاكل التصميمية وبخاصة في حالة المساجد وهو ما سوف نوضحه فيما بعد عند مناقشة السلبيات الناتجة عن عدم توجيه العمران والمباني للقبلة.

١- أدلة التوجه للقبلة وعلاقتها ذلك بالعمران والبنيان:

إذا نظرنا للتوجه للقبلة من وجهة تأثيرها على مباني المجتمع المسلم، فإننا نجد أن التوجه للقبلة هو أحد أهم الثوابت التصميمية الخاصة بعمارة المساجد مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ

(١) انظر: خالد عزب (١٩٩٧). تخطيط وعمارة المدن الإسلامية. كتاب الأمة، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص ٢٣، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والمسجد وعبر الشارع، ودخل المباني المعاصرة". هة ولا قبلة، ويصعب على الانسان الم

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٤٤﴾ [البقرة: ١٤٤]، فعلى ذلك يمكن أن نتخيل أن كل مسجد فى شتى أنحاء المعمورة يحتل نقطة على محيط دائرة مركزها الكعبة، وتبعاً لذلك يكون جدار القبلة هو أهم عنصر معمارى فى أى مسجد، وبالتالي يصبح توجيه المسجد من الوجهة التجريدية هو المحدد لشخصية المسجد وليس مجرد عناصره الأخرى المختلفة.

إن عملية أداء الصلاة لا تقتصر فقط على المساجد، فإن صلوات النوافل والسنن يمكن أن تؤدى فى البيوت أيضاً، وعملية أداء الصلاة فى البيوت كانت موجودة عند بنى إسرائيل عندما كانوا فى مصر على عهد فرعون موسى ويتضح لنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]، قال أكثر المفسرين فى تفسير الآية الكريمة: "كان بنو إسرائيل لا يصلون إلا فى مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بنى إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم سرا، وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت، وفى الشريعة الإسلامية فإن صلاة النافلة فى البيت أفضل من المسجد، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديث زيد ابن ثابت: "فعلیکم بالصلاة فى بیوتکم فإن خیر صلاة المرء فى بیته إلا المكتوبة" (أخرجه البخارى)^(١).

وقال العوفى عن ابن عباس فى تفسير الآية الكريمة السابقة^(٢): "قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لانستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة، وقال مجاهد: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا فى الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا فى بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة^(٣)، يصلون فيها سرا وكذا قال قتادة والضحاك".

(١) انظر تفسير الآية ٨٧ من سورة يونس فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .

(٢) انظر تفسير الآية ٨٧ من سورة يونس فى تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير .

(٣) قال بعض المفسرين أن قبلة اليهود فى ذلك الوقت هى بيت المقدس .

مما سبق يتضح لنا أن فكرة جعل البيوت قبل القبلة كانت موجودة بالفعل منذ عهد سيدنا موسى من أجل تسهيل إقامة الصلاة بداخلها لاتباعه الذين آمنوا برسالته، ثم يجيء رسولنا الكريم ليؤكد هذا المفهوم بقوله عليه الصلاة والسلام: "إن لكل شئ سيدا وإن سيد المجالس قبالة القبلة"^(١).

إذن فإنه يفضل أن يتم توجيه المباني، سواء السكنية أو العامة، جهة القبلة^(٢) مما يساعد على أداء الصلوات داخل هذه المباني بسهولة، كما يحقق حديث رسولنا الكريم من أن سيد المجالس ما كان قبالة القبلة.

ونجد من الواجب أن نكرر هنا ما سبق أن ذكرناه في المحور الخاص "بضوابط العمران والبناء في قصص القرآن"، من أن الغاية من اعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء: "ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات" [إبراهيم: ٣٧]، وهو ما يعنى انعكاس ذلك بصورة مباشرة على التجمعات العمرانية بتوجيه شوارعها ومبانيها إلى القبلة.

٢- ما الذى يخسره العمران الإسلامى بعدم توجيهه للقبلة؟

ربما يتبادر هذا السؤال إلى ذهن البعض، وبخاصة أن المدن والمباني فى المجتمعات الإسلامية ليس لها توجيه محدد، اللهم إلا فى بعض المشروعات التى تأخذ العوامل البيئية فى الاعتبار، أو فى المناطق المخصصة للمقابر التى يحرص متفدوها على أن تكون هذه المقابر فى اتجاه القبلة لسهولة دفن موتى المسلمين بالطريقة الشرعية.

الإجابة عن السؤال السابق يمكن أن تكون ذات شقين أساسيين: الأول يتعلق بأشياء معنوية رمزية، والثانى يتعلق بأشياء مادية ذات أثر سلبي على عمران ومباني المجتمع الإسلامى، وستوضح هذين الشقين فيما يلى:

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن .

(٢) يفضل فى دورات المياه عدم استقبالها أو استنابها للقبلة .

أ- الأثر السلبي المعنوى والنفسى على المجتمع المسلم:

لكي نتفهم ماهو الأثر المعنوى والنفسى السلبي الناتج من عدم توجيه العمران الإسلامى للقبلة، فإنه يجب أولاً أن نوضح أنه توجد علاقة مباشرة بين أسلوب تصميم المباني وتخطيط المدن وما يحمله العمران من دلالات وبين تكوين ثقافة أفراد المجتمع وتوجهاتهم الفكرية، وذلك لأن لفن العمارة وضعاً خاصاً يتفرد به عن باقى الفنون سواء كانت تشكيلية أو غيرها، فالمبنى الذى يقام فى المدينة سيراه كل أفراد المجتمع جميلاً كان أو قبيحاً، أراد الناس رؤيته أم لم يريدوا، كما أنه قد يزيد من جمال البيئة الحضرية أو يسيئ إليها، ومن جانب آخر فإن العمارة تمثل واجهة صادقة لثقافة المجتمع والتي تعتبر محصلة لتفاعل ذكاء الإنسان وفكره ووجدانه مع البيئة التي يعيش فيها^(١).

كما أن للعمران والمباني دوراً فى تشكيل وبناء الإنسان بطريق غير مباشر لا يشعر به، لذلك فإن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا فى عهود سابقة له مقولة ذات دلالة فى هذا السياق، وهى^(٢): "نحن نحدد أتماط مبانينا، ولكنها فيما بعد هى التى تحدد أتماط حياتنا".

وربما تتعدى أخطار العمران بما يحمله من إحياءات ومدلولات ورموز التشكيل الوجدانى ليشمل أيضاً الجوانب الأخلاقية، ليصبح العمران انعكاساً لأخلاق العصر الذى بنى فيه، وفى هذا المعنى يقول الشيخ الشعراوى رحمه الله^(٣): "ولذلك إن أردت أن تعرف خلق وأخلاق أى عصر واستقامته أو آفاته فى تصريف الحركة.. فلتنظر إلى المعمار فى هذا العصر".

وبالرجوع للإجابة عن أثر الشق المعنوى والنفسى لعدم توجيه العمران الإسلامى للقبلة، فإننا نجد أن الإسلام يحرص كل الحرص على تمييز شخصية المسلم وعدم تشبيهه بالآخرين من أهل الملل الأخرى، للدرجة التى اعتبر فيها الإسلام أن من تشبه بقوم فهو

(١) للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: المجتمع وثقافة العمران (٢٠٠٢). مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

(٢) دافيد مالىين رودمان ونيكولاى لينسن (ترجمة: شويكار ذكى). (١٩٩٧). ثورة فى عالم البناء. الدار الدولية

للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٦٥

(٣) انظر جريدة اللواء الإسلامى، عدد ٩٦، سنة ١٩٨٣، القاهرة.

منهم، وفي شأن القبلة بالذات فإن القرآن الكريم يؤكد على هذا التمييز بين أهل الشرائع السماوية فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، فالآية الكريمة توضح للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بأنه لو جاء بكل حجة وبرهان لأهل الكتاب على أن توجهه إلى المسجد الحرام في الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا هذه القبلة عنادا واستكبارا، وما هو بتابع قِبْلَتِهِمْ وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وأن اتباع أهوائهم في شأن القبلة وغيرها بعد ما جاءه من العلم يدخله في زمرة الظالمين، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام^(١).

لقد أوضح القرآن الكريم في شأن التوجه للقبلة أن أهل كل شريعة من الشرائع السماوية لهم القبلة الخاصة بهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ومن هنا فإن عدم توجيه العمران في المجتمعات الإسلامية للقبلة يفقد المسلمين التميز والتفرد الذي أراده الله سبحانه وتعالى عن عمران ومباني أهل الشرائع الأخرى، مع علمنا بمدى حرص أهل الشرائع الأخرى على عدم اتباع قبلة المسلمين مهما ظهر لهم من الحجج والآيات البيّنات.

إن عدم توجيه العمران الإسلامي للقبلة يفقد المجتمع المسلم أهم عوامل تميز شخصيته وتفرده من الناحية المعنوية والنفسية، حيث يشعر كل مسلم في أي مجتمع إسلامي بوحدة الاتجاه وبوجود رباط روحى دائم بينه وبين مكة المكرمة أم القرى، ليس في المسجد فقط أثناء أداء الصلاة ولكن أيضا في بيته ومكان عمله وفي جميع المباني التي يمارس فيها أنشطته الحياتية ما أمكن تطبيق ذلك.

(١) انظر: التفسير الميسر (إعداد نخبة من العلماء) (١٤١٩ هجرية). وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، ص ٢٢، بتصرف.

ب- الأثر السلبي المادى على العمران والبنيان:

أما إذا أردنا أن نعرف كيف يمكن أن يؤثر عدم التوجه للقبلة بطريقة سلبية على العمران والبنيان، فإننا يجب أن نرجع إلى بعض الدراسات البحثية الحديثة والتي يمكن أن توضح هذه الجوانب السلبية.

ففى دراسة حديثة أجريت على ثمانية عشر مسجداً فى مدينة "مومباى" (بومباى) بالهند^(١)، وجد أنه نتيجة عدم توجيه وتخطيط شوارع المدينة للقبلة فإن هذا أدى إلى انحراف مدخل هذه المساجد عن حائط القبلة بعدة درجات تتراوح ما بين ٢ درجة و ١٨٠ درجة.

إن الدراسة السابقة لاتمثل حالة خاصة بمدينة "مومباى" بالهند، لأنه بالنظر إلى المخططات العمرانية الحديثة فى العالم الإسلامى يلاحظ فى كثير من الأحيان تعارض اتجاه حائط القبلة مع باقى أضلاع قطعة الأرض المخصصة له، والتي تعتبر جزءاً من المخطط الشبكي للمدينة ككل، وهو أسلوب تخطيطى يختلف عن التخطيط المتضام الذى كان متبعاً فى المدن الإسلامية القديمة، وهذه الحالة تنطبق مع العديد من المساجد فى الأحياء الحديثة من مدن العالم الإسلامى.

ويظهر الأثر السلبي لظاهرة عدم توجيه شوارع ومباني المدن الإسلامية لاتجاه القبلة بصورة أكبر، فى المساجد صغيرة المساحة أو المخصصة لأداء الصلوات اليومية، حيث إن تعارض اتجاه حائط القبلة مع باقى أضلاع قطعة الأرض المخصصة للمسجد تؤدى إلى عدم تعامد الحائطين الجانبيين على حائط القبلة مما يفقد المصلى داخل هذه المساجد الإحساس باتجاه القبلة، كما يؤثر على شكل الفراغ الداخلى لقاعة الصلاة غير المنتظمة الأضلاع، كما يؤدى فى غالب الأحيان إلى قصر الصفوف الأولى للمصلين الأقرب إلى جدار القبلة، مقارنة ببعض الصفوف الأخرى الأبعد عن جدار القبلة.

Taj, H.M. (1999). The influence of Qibla on street line orientation in Islamic Cities. Proceed- (١) ings of the symposium on Mosque Architecture, Vol.3B. pp. 137-181. College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

وما ينطبق على المساجد ينطبق على باقى مباني المدن المعاصرة ولكن بصورة ربما تكون أكثر سلبية، حيث لا يمكن التعرف على اتجاه القبلة داخل هذه المباني إلا بشق الأنفس وفي بعض الأحيان بأساليب يغلب عليها عدم الدقة، وكم عانى الكثير من المسلمين - إذا أرادوا الصلاة فى بيته أو فى غيرها من المباني العامة الأخرى - من تعارض أسلوب فرش الأثاث الداخلى مع وضع سجادة الصلاة جهة القبلة، كما أن عدم توجيه بيوت ومباني المسلمين جهة القبلة جعلت المسلمين فى بيوتهم ومبانيهم العامة يفقدون ميزة التوجه للقبلة أثناء الدعاء خارج الصلاة أو قراءة القرآن الكريم أو تلقى دروس العلم النافع وما شابه.

٣- قضايا عمرانية تتعلق بالتوجه للقبلة:

نوجد بعض القضايا العمرانية التى يمكن أن تنشأ نتيجة توجيه العمران الإسلامى للقبلة، رأينا من الواجب أن نلفت النظر إليها، وقد تخيرنا منها القضايا التالية:

أ- خصوصية شكل العمران فى مكة المكرمة:

مدينة مكة المكرمة اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون قبة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، فوضع فيها بيته الحرام الذى تفتد إليه جموع المسلمين من جميع بقاع العالم لكى تؤدى شعائر الحج والعمرة، ولمكة المكرمة خصوصية تختلف عن باقى مدن المسلمين نتيجة لوجود بيت الله الحرام فيها، فلقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "البيت قبة لأهل المسجد، والمسجد قبة لأهل الحرم، والحرم قبة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى" (١).

ونظرا إلى أن المسجد الحرام هو قبة أهل الحرم المكى فإن هذا يعنى من الناحية النظرية، أنه فى حالة توجيه كل المباني فى مكة المكرمة جهة القبلة فإن هذه المباني سوف تبدو فى صورة دوائر متحدة المركز (وهو هنا المسجد الحرام)، وهذه الدوائر تتسع كلما

(١) انظر تفسير الآية ١٤٤ من سورة البقرة فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي .

بعدت عن المركز، مما يعنى أن الشكل الدائرى لمدينة مكة المكرمة هو شكل ينبع من خصوصيتها دون باقى المدن الإسلامية وذلك لوجود المسجد الحرام بها؛ لذا لزم التنبه ولفت الأنظار لهذه الخصوصية العمرانية التى يمكن أن تنفرد بها أم القرى فى حالة استقبال كل مبانيها المحيطة بالمسجد الحرام لجهته.

ولكن ربما لوجود المسجد الحرام فى منطقة واد منخفض تحيط به الجبال التى يتراوح ارتفاعها بين ٤٠٠ إلى ٨٠٠ متر عن سطح البحر^(١)، فإن هذه الظروف الطبيعية تجعل عملية تشكيل العمران فى مكة على هيئة دوائر تحيط بالمسجد الحرام عملية صعبة التنفيذ على مستوى كل المدينة فى الواقع العملى، وإن كان يمكن تطبيق هذه الفكرة فى المنطقة المنخفضة التى تحيط بالمسجد الحرام من جهاته المتعددة.

ولاشك أن لعمران المدينة المقدسة خصوصيات أخرى، ولكننا أردنا أن نوجه الأنظار لخصوصية شكل العمران فيها فى حالة إذا ما تم توجيه كل مبانيها جهة المسجد الحرام، وربما يأتى اليوم مع توفر الإمكانيات المادية والتقنيات المناسبة حيث يتمكن القائمون على أمور المملكة العربية السعودية من تحقيق هذه الأمنية التى تتيح لزوار بيت الله الحرام أن يكونوا باستمرار فى اتجاه المسجد الحرام حتى وهم داخل مباني إقامتهم مهما بعدت أو اقتربت من المسجد الحرام.

ب- التعارض بين توجيه المباني للقبلة والظروف البيئية:

القضية الثانية التى أردنا أن نلفت النظر إليها هى إمكانية التعارض بين توجيه مباني مدينة ما إلى القبلة، مع الظروف والعوامل البيئية السائدة فى المنطقة المقام فيها هذه المدينة.

وبتفصيل أكثر فإن توجيه مباني مدينة ما فى موقع معين لجهة القبلة ربما يتعارض مثلا مع الرياح الباردة المحببة التى تساهم فى خفض درجات الحرارة ببيوت هذه المدينة فى فصل الصيف مثلا، أو أن هذا التوجيه للقبلة يجعل واجهات المباني الخارجية أكثر

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد عمر توفيق (١٩٨٦). أوضاع تخطيط الإسكان على سفوح الجبال بمدينة مكة المكرمة. كتاب أبحاث ندوة "الإسكان فى المدينة الإسلامية" بأثره، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ص ١٢٧-١٣٤.

عرضة للإشعاع الشمسي، فكيف يمكن التوفيق بين توجيه المباني للقبلة وعدم التكيف مع الظروف والعوامل البيئية في موقع معين؟.

إذا افترضنا على سبيل المثال أن توجيه بعض المباني جهة القبلة في موقع معين يتعارض مع توجيه فتحات هذه المباني للرياح المحببة السائدة في هذه المنطقة، فإن استخدام بعض الحلول المعمارية مثل ملاقف الهواء أو البادجير (أبراج الرياح)^(١)، مما يسمح بالتقاط الهواء بالرغم من أن المبنى نفسه لا يواجه الرياح السائدة، وذلك لأنه يتم توجيه فتحات ملاقف الهواء إلى الجهة التي تهب منها الرياح بالرغم من أن المبنى نفسه بغرفة و فراغاته الداخلية يتجه جهة القبلة.

أما إذا افترضنا أنه في موقع آخر أو مدينة أخرى أن توجيه المباني جهة القبلة يجعل واجهات هذه المباني أكثر تعرضاً للإشعاع الشمسي، ففي هذه الحالة يمكن تقليل الفتحات الخارجية مع تضييقها أو استخدام بعض وسائل التظليل الخارجية، وفي حالة توافر المساحات والامكانيات المادية فإن فتح النوافذ الرئيسية لهذه البيوت على أفنية داخلية مكشوفة ومظللة في نفس الوقت يساعد على التغلب على هذه المشكلة، إلى جانب توفير الخصوصية لأهل البيت، وهو ما كان يتم اتباعه في مباني المدن الإسلامية القديمة.

إن ظهور بعض المشاكل على مستوى تخطيط المدن أو المباني بسبب توجيهها جهة القبلة شيء متوقع، ولكن في سبيل إحياء إحدى السنن التي حض عليها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ولقت القرآن الكريم إليها الأنظار، فإن على المتخصصين في مجال تخطيط المدن وتصميم المباني أن يجدوا الحلول والابتكارات الهندسية لهذه المشاكل أو الصعوبات والتي أشرنا لبعض منها، فالحاجة أم الاختراع.

ج- أهمية تحديد اتجاه القبلة بدقة:

القضية الثالثة التي نعرض لها في هذا المحور تتعلق بوجود حرص مخططي المدن

(١) ملاقف الهواء وأبراج الرياح كانت تستعمل في المباني الإسلامية القديمة لالتقاط الرياح السائدة الباردة بكل منطقة (للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: العمارة الإسلامية والبيئة (٢٠٠٤). سلسلة عالم المعرفة - عدد ٣٠٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ١١٦ وما بعدها).

ومصمى المساجد والمباني على تحديد اتجاه القبلة بدقة متناهية، لعدة أسباب هامة منها:
 * ما يتعلق بالنواحي الشرعية: التي تجعل من التوجه للقبلة أثناء أداء الصلوات أحد شروط صحتها، مما يفرض على مصمى المساجد بصفة خاصة الحرص على تحديد اتجاه القبلة بدقة كبيرة، وهذا ينطبق أيضا على المباني السكنية التي يتم أداء صلوات النوافل بها للرجال وصلاة الفرض بالنسبة للنساء في حالة عدم ذهابهن لأدائها بالمساجد.

ويجدر بالذكر هنا أن الخطأ في حساب اتجاه القبلة لدرجة واحدة فقط تبعد اتجاه المصلى إلى اتجاه يشير إلى مكان يبعد عن القبلة ٥٠، ١٠٣ كم تقريبا، والدقيقة الواحدة تبعده ١،٧٠ كم^(١)، لذلك يجب توخي الدقة في إجراء الحسابات الخاصة باتجاه القبلة وطريقة تحديدها.

* ما يتعلق بتأثير ذلك التحديد على المحيط العمرانى ككل: فمن الأمثلة الهامة التي توضح مدى تأثير المسجد على محيطه وبيئته العمرانية ما يمكن أن يتضح من تأثير اختيار اتجاه القبلة لجامع الزيتونة بمدينة تونس التاريخية والذي انعكس أيضا على توجيه باقى المساجد بها، فعلى الرغم من أن توجيه جامع الزيتونة كان غير دقيق هندسيا، حيث تم توجيهه مائلا ٢٩ درجة و ١١ دقيقة على الاتجاه الصحيح للقبلة، إلا أن توجيه جامع الزيتونة سيطر على توجيه كل المباني الدينية والتي بنيت بعد ذلك^(٢)، لذلك فانه من الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه بالرغم من أن التحديد الدقيق لاتجاه القبلة هام جدا، إلا أنه بمجرد أن يتم تحديد اتجاه القبلة لمسجد جامع يتم بناؤه قبل تشكيل البيئة العمرانية المحيطة، فإن تأثيره يتعدى الدقة الهندسية ليؤثر في كل محيطه العمرانى والمعمارى.

لقد أولى علماء المسلمين فى الماضى مسألة تحديد اتجاه القبلة اهتماما كبيرا، وكان

(١) محمد أحمد سليمان (١٩٩٩). سباحة فضائية فى آفاق علم الفلك . مكتبة العجبرى، الكويت، ص ٥٥٥
 (٢) صادق أحمد صادق (١٩٩٩). التشكيل الفراغى وتأثيره على علاقة المسجد بالبيئة العمرانية . من سجل ندوة عمارة المساجد (ج ٣)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض .

ذروة الإنجازات الإسلامية في مجال تحديد اتجاه القبلة تتمثل في عمل عالم الفلك الخليلي (تألق في دمشق حوالي ١٣٦٥م)، فقد وضع جدولاً لاتجاه القبلة على أساس معادلة دقيقة، وبين جدول الخليلي اتجاه القبلة لكل درجة من خط العرض بدءاً من ١ درجة حتى ٥٦ درجة، ولكل درجة من خط الطول بدءاً من ١ درجة حتى ٦٠ درجة، وبهذا يحتوى جدول الخليلي على مداخل يبلغ عددها ٣٠٠٠ مدخل تقريباً، وقد حسب اتجاه القبلة بالدرجات والدقائق، ويعتبر إنجازاً رائعاً أن تكون الغالبية العظمى من هذه المداخل محسوبة بمتهى الدقة، أو بخطأ في حدود زائد أو ناقص واحد أو اثنين دقيقة^(١).

لقد وفرت الأجهزة الحديثة إمكانية تحديد اتجاه القبلة بالنسبة لأي مبنى في أي موقع بدقة متناهية، بحيث لا يوجد أي سبب يجعل المسلمين في العصر الحديث أن يتقاعسوا عن البدء في تنفيذ مدنهم ومبانيهم الجديدة في اتجاه القبلة، لما في ذلك من مزايا متعددة تعود على المسلمين القاطنين في هذه المدن والمباني كما أوضحنا آنفاً.

ثالثاً: البعد البيئي في العمران الإسلامي

يهتم علم التصميم البيئي، وهو أحد فروع علم العمارة، بدراسة العناصر البيئية والمناخية التي تؤثر على تصميم المباني والفراغات الخارجية من أجل تهيئة وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان سواء داخل المباني أو في الفراغات الخارجية في المحيط العمراني^(٢).

وبدراسة العديد من الآيات القرآنية يتبين لنا أن القرآن الكريم قد لفت أنظار المسلمين إلى أهمية مراعاة العوامل البيئية في التصميم العمراني والمعماري؛ لذلك فإن هذا المحور يهدف إلى إبراز المفاهيم التي وردت في بعض الآيات القرآنية ذات الصلة

(١) دونالد هيل (ترجمة: أحمد فؤاد باشا) (٢٠٠٤). العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية. سلسلة عالم

المعرفة - عدد (٣٠٥)، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، ص ٦٦.

(٢) يحيى وزيرى (٢٠٠٤). دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم. كتاب أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة بديي، المجلد الثالث، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.

بمجال التصميم البيئى، مما يؤكد على أن مراعاة البعد البيئى هو أحد الضوابط التى يجب مراعاتها فى العمران الإسلامى .

كما يلفت النظر أن القرآن الكريم لم يغفل الإشارة إلى أحد أهم أهداف علم التصميم البيئى، التى يسعى المصممون لتوفيرها فى المباني أو الفراغات الخارجية، وهذا الهدف ينحصر فى محاولة جعل درجات الحرارة داخل المباني أو فى الفراغات الخارجية حولها فى حدود معينة لاتقل أو تزيد عنها، وذلك باستخدام أساليب تصميمية معينة .

ونلمح المعنى المشار إليه عاليه فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الانسان: ١٠]، يقول ابن كثير -رحمه الله- فى شرح معنى قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، أى ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم بل هو مزاج واحد دائم سرمدى لا يبغون عنها حولا^(١)، كما جاء فى التفسير الميسر أن المقصود^(٢): "لا يرون فيها حر شمس ولا شدة برد"، والزمهرير فى اللغة هو شدة البرد .

إن الآية الكريمة السابقة تشير إلى الحالة التى سوف يكون عليها أهل الجنة، فليس عندهم حر مزعج أو برد مؤلم، وهو ما يتطابق مع تعريف مصطلح "الراحة الحرارية" الموجود فى علم التصميم البيئى، والذي ينص على أن الراحة الحرارية هى حالة العقل التى يشعر فيها الإنسان بارتياح ورضا فيما يتعلق بالبيئة الحرارية الموجود فيها^(٣)، فأى إنسان عادى لا يشعر بالراحة الحرارية إذا زادت أو قلت درجة الحرارة عن حدود معينة، أى أنه لا يشعر بالراحة فى درجات الحرارة العالية مثلما لا يشعر بالراحة أيضا فى حالات البرودة الشديدة.

فإذا كانت درجة حرارة الهواء أعلى من درجة حرارة البشرة فإن الحرارة المتولدة من الجسم تجهد صعوبة فى الخروج ويتج عن ذلك ارتفاع فى درجة حرارة البشرة ونشاط الغدد التى تفرز العرق، ويمكن أن يصل معدل إفراز العرق إلى ٤ لتر/ ساعة مما يسبب

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان فى كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ ابن كثير .

(٢) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان فى كتاب "التفسير الميسر" [إعداد نخبة من العلماء] : مرجع سابق

(٣) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin.

إرهاقا لا يمكن احتمالها إلا لفترة قصيرة، أما في حالة انخفاض درجة حرارة البيئة المحيطة عن الحد المناسب فإن الاستجابة الفسيولوجية الأولى لذلك انقباض الشعيرات الدموية تحت الجلد وبالتالي يقل اندفاع الدم إلى البشرة مما يؤدي إلى برودة الشعيرات وخاصة اليدين والقدمين، وتحدث رعشة لا إرادية في حالات البرد الشديد (الزمهرير) ويزيد معدل الاحتراق إلى مرتين أو ثلاث مرات^(١).

فإذا كانت الجنة تمثل البيئة المثالية بكل ما فيها من متع ونعيم مقيم فإن الآية الكريمة تضيف متعة الراحة "الحرارية" أيضا أي لا يرى في الجنة شدة حر كحر الشمس ولا زمهريرا، أي: ولا بردا مفرطا، وفي نفس الوقت فإن الآية الكريمة تلفت النظر - وبشدة- إلى أن الهدف النهائي هو توفير الراحة لأهل الجنة، مما يلفت نظر المصممين إلى أهمية العمل على توفير هذه الراحة بقدر المستطاع في مباني أهل الأرض تأسيا ببيئة الجنة المثالية والتي هي فوق خيال البشر.

ثم تأتي العديد من الآيات القرآنية الأخرى لتوضح وتبين للبشر كيف يمكن لهم أن يصلوا إلى هذه الغاية، وهي مراعاة العوامل البيئية في التصميم ووسائل تحقيق الراحة الحرارية سواء في المباني أو الفراغات الخارجية وهو ما سوف نحاول أن نوضحه في المحاور التالية:

١- مراعاة اختيار مواقع التجمعات العمرانية:

من خلال بحثنا في آيات القرآن الكريم عن ضوابط العمران، وجدنا أن إحدى الآيات الكريمة قد أشارت بطريق غير مباشر إلى علاقة وتأثير العوامل البيئية في اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

قال عبد الرحمن بن زيد في تفسير الآية الكريمة السابقة^(٢): "إن الآية التي كانت

(١) شفق العوضى الوكيل، ومحمد عبدالله سراج (١٩٨٥). المناخ وعمارة المناطق الحارة. القاهرة، ص ١٦٦.

(٢) انظر تفسير الآية ١٥ من سورة سبأ في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ولا ذبابا ولا برغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فاذا نظروا إلى بيوتها ماتت الدواب، وقيل: بلدة طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها".

إن الآية الكريمة تلفت النظر إلى أهمية اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية من حيث المناخ الجيد والهواء الطيب، كما تلفت النظر إلى علاقة وجود الجنات الأرضية وتأثيرها على تحسين مناخ هذه التجمعات، فلقد أشارت الآية إلى وجود جنتين عن يمين وشمال مساكن بلدة سبأ، وهو مما يلفت نظر المصممين إلى أهمية تواجد الحدائق فى التجمعات العمرانية كعنصر جمالى ويثى فى نفس الوقت، كما لا يجب أن نغفل دور إحاطة المساكن عن يمينها وشمالها بالحدائق مما يحميها من الرياح المحملة بالرمال فى حالة هبوبها على هذه التجمعات السكنية.

وفى آية كريمة أخرى يلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى أهمية دراسة الموقع قبل بناء المبنى، وذلك للاستفادة من ظروف البيئته، ونلمح ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، أى اتخذت من جانب الشرق وهو المكان الذى تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شىء أفضل من سواها، حكاه الطبرى^(١).

إن عملية تحديد علاقة الأماكن أو الفراغات العمرانية والمعمارية بالجهات الأصلية لها أهمية قصوى، لأن ذلك سوف يؤثر على الأسلوب الذى تتعرض له هذه الأماكن للإشعاع الشمسى أو الرياح السائدة بكل منطقة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة بطريق غير مباشر حيث أوضحت أن مريم انتبذت مكانا شرقيا من حيث تطلع الأنوار فى الصباح، وكما نعرف الآن فإنه ينصح بالتعرض للشمس عند طلوعها قبل أن ترتفع فى السماء وتشتد أشعتها لما فى هذا التعرض من فوائد صحية جمّة^(٢).

(١) انظر تفسير الآية ١٦ من سورة مريم فى الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي .

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيرى (٢٠٠٣). التصميم المعماري الصديق للبيئة . مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ١١٨ وما بعدها .

لقد أراد القرآن الكريم أن ينبه إلى أهمية وعلاقة التجمعات العمرانية أو المباني بالبيئة، سواء كان ذلك في أسلوب اختيار أماكنها أو في علاقتها بالجهات الأصلية، وهي أشياء توضح اهتمام الإسلام بالبعد البيئي عند إقامة التجمعات العمرانية.

٢- الإشارة إلى أهمية الظلال كأحد وسائل تحقيق الراحة الحرارية؛

سبق وأن أشرنا إلى أن الهدف الأساسي لعلم التصميم البيئي هو تحقيق الراحة الحرارية في المباني أو في الفراغات الخارجية، وتوجد وسائل واستراتيجيات تصميمية متعددة لتحقيق هذا الهدف، ومن أهم هذه الوسائل وأنجحها توفير الظلال.

وبدراسة الآيات القرآنية التي تحدثت عن الظلال، نجد أن القرآن الكريم ينهج نهجاً رائعاً في لفت النظر إلى أهمية الظلال، ففي البداية نرى أن الله يلفت نظر عباده إلى الظل كظاهرة طبيعية مشاهدة لها خصائص معينة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

إن الآية الكريمة توضح بعض خصائص الظل في الامتداد والانقباض وعلاقة هذا بانخفاض الشمس أو ارتفاعها في السماء على مدار اليوم، إن مراد الآية الكريمة لفت الأنظار إلى ظاهرة الظلال كظاهرة طبيعية تستحق التدبر والدراسة.

والظل في اللغة نقيض الضح (بالكسر)، أو هو الفسح أو هو بالغداة والفسح بالعشى، ومكان ظليل ذو ظل، والظلة شيء كالصفة يستتر به من الحر والبرد، والظلال والمظلة (بالكسر والفتح) الكبير من الأخبية، والظليلة مستنقع الماء في أسفل مسيل الوادي والروضة الكثيرة الحرجات، والظلل الماء تحت الشجر لا تصيبه الشمس^(١)، وفي المعجم الوجيز^(٢): الظل هو ضوء الشمس إذا استترت عنك بحاجز، والظليل ذو الظل ويقال ظل ظليل أي دائم.

(١) انظر معجم الفيروزبادي .

(٢) انظر المعجم الوجيز .

ثم فى آية أخرى يوضح القرآن أن الظلال هى إحدى نعم الله سبحانه وتعالى التى امتن بها على البشر، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، أورد الإمام القرطبي - رحمه الله - فى تفسير الآية الكريمة ما يلى^(١): "لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل كبيرة فقد أوضح الله سبحانه وتعالى أن الظلال إحدى نعمه التى من بها على بنى البشر، فالله سبحانه وتعالى قد خلق للبشر الأشجار التى توفر الظلال كما جعل من الجبال مواضع للسكنى كالكهوف - كما فى كهف أهل الكهف - يلجأ إليها الإنسان طلبا للظل والحماية، كما ألهمهم اتخاذ الأبنية حماية لهم من الحر والبرد وطلبا للظل".

ثم تأتى آية كريمة أخرى لتوضح، بأسلوب واضح مباشر، أهمية الظلال من ناحية توفير الراحة الحرارية؛ لأن الظل لا يستوى والحر، فيقول جل فى علاه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣]، إن الآية الكريمة تؤكد وتنبه على حقيقة يلمسها جميع البشر حيث يشعرون بالفرق الكبير بين الأماكن المظللة والأماكن المعرضة للشمس والحر.

ثم بعد ذلك تأتى آية قرآنية لتوضح الأهمية القصوى للظلال لدرجة أنها تصبح إحدى المتع التى أعدها الله لعباده الصالحين بالجنة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣١]، قال الضحاك والسدى وأبو حرزة فى قوله تعالى: "وظل ممدود" لا يتقطع ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود الجنة سجاج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس^(٢).

وفى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول

(١) انظر تفسير الآية (٨١) من سورة النحل فى كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي.

(٢) انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة الواقعة فى تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.

الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، فاقراء وإن شتتم وظل ممدود"، وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها"^(١).

ومن اللافت للنظر أن الآية الكريمة قد ربطت ما بين الظل الدائم ووجود الماء الجارى، وهو ما يؤدي إلى زيادة التقليل في درجات الحرارة وهو ما أثبتته العديد من التجارب الحديثة^(٢)، لقد أعطت الآية الكريمة أمودجا مثاليا للتصميم البيئي حيث الجمع بين الظلال والماء، وهو ما يفسر حرص المسلمين الأوائل على وجود النوافير والبحيرات المائية داخل أفنية المباني والبيوت الإسلامية وفي الحدائق الخارجية المحيطة بها بهدف خفض درجات الحرارة، إلى جانب تحقيق العامل الجمالي أيضا^(٣).

إن حرص القرآن الكريم على لفت الأنظار لأهمية الظلال في عمليات التصميم البيئي له شقان: الأول منهما يؤكد على أهمية العلاقة بين العوامل البيئية والعمران والبنيان الإسلامى، والثاني يوضح أن هذا التأكيد والحرص على أهمية الظلال يتفق مع القياسات العلمية الحديثة التي توضح أثر توفير الظلال في خفض درجات الحرارة داخل المباني والفرغات الخارجية المكشوفة^(٤).

(١) الإمام ابن قيم الجوزية (بدون تاريخ) . حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . دار عمر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة، ص ١٣٦

(٢) انظر على سبيل المثال:

Yehia Wazeri (2001). The natural cooling system?an approach for improving the thermal performance of buildings in North Africa (Ph.D.). Institute of African Research and Studies, Cairo University, pp. 95-97.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيرى (العمارة الإسلامية والبيئة) : مرجع سابق، ص ١٣٢، ص ٢١٨، ٢١٧،

(٤) تعتبر عملية تظليل المباني أو الفراغات الخارجية أحد أهم مبادئ علم التصميم البيئي، وحتى يمكن أن ندرك أهمية إيجاد وتوفير الظلال خاصة بالمناطق الحارة فإن بعض الدراسات أوضحت أن تظليل الشوارع يؤدي إلى خفض في درجة الحرارة يقدر بحوالى ٤ درجات مئوية، وفي قياسات تمت على بعض أفنية المنازل الإسلامية القديمة بالقاهرة اتضح أن درجات الحرارة داخل هذه الأفنية المعرضة للظل نقل بحوالى ٤ إلى ٧ درجات مئوية عن درجة حرارة سطح المنزل المعرض للشمس .

٣- أنموذج قرآني يوضح فكرة التصميم البيئي؛

خلال بحثنا في القرآن الكريم عن الآيات التي تبرز أهمية البعد البيئي في العمران والبنيان، وجدنا أحد الأمثلة الهامة التي توضح أحد جوانب الفكر البيئي في التصميم المعماري، ونقصد هنا تحديد الوصف الوارد بسورة الكهف لعلاقة حركة الشمس بالكهف الذي لجأ إليه الفتية المؤمنون، ويصف لنا سبحانه وتعالى هذه العلاقة في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

يقول الإمام الشوكاني في تفسير الآية الكريمة^(١): "للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان: الأول: أنهم مع كونهم في مكان مفتوح انفتاحا واسعا في ظل جميع نهارهم ولا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لأن الله حجبتها عنهم، والثاني: أن باب الكهف كان مفتوحا جهة الشمال فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف وإذا غربت كانت عن يساره".

إن الشاهد من الآية الكريمة السابقة أنها تلفت النظر إلى علاقة حركة الشمس بكهف الفتية المؤمنين^(٢)، وهي بذلك تلفت النظر بطريقة غير مباشرة إلى أهمية دراسة العلاقة بين توجيه المبنى والإشعاع الشمسي الواصل إليه، لما في ذلك من تأثير كبير على تعرض واجهات المباني من الخارج لهذا الإشعاع على مدار العام، وهو ما يؤثر على فراغات المبنى من الداخل عن طريق دخول الإشعاع الشمسي من فتحات المبنى الخارجية.

لقد أوضح المفسرون -جزاهم الله خيرا- أهمية توجيه فتحة الكهف بحيث لا يتعرض من بداخله للإشعاع الشمسي المباشر بل يكون في الظل أغلب الوقت، وهذا

(١) انظر تفسير الآية ١٧ من سورة الكهف في تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر بحثنا: دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم: مرجع سابق.

الهدف هو أحد أهداف عملية التصميم البيئي خاصة في المناطق الحارة والتي تركز على استراتيجيتين أساسيتين بالنسبة لعلاقة المبنى بالإشعاع الشمسي وهما^(١):

١- في الصيف: تقليل التعرض للإشعاع الشمسي.

٢- في الشتاء: العمل على زيادة اكتساب للإشعاع الشمسي.

إن نماذج الآيات القرآنية التي أوردناها في هذا المحور، تؤكد على أن القرآن الكرى مقد أوضع أهمية أخذ العوامل البيئية في الاعتبار عند تصميم المباني أو على مستوى التجمعات العمرانية، مما يعنى أن أخذ البعد البيئي في الاعتبار يعتبر من ضوابط العمران والبنيان التي أكد عليها القرآن الكرىم.

إن هذا الضابط الذي ألمح إليه القرآن الكرىم يجب أن يؤخذ في اعتبار القائمين على تعمير المدن والمجتمعات العمرانية في الدول الإسلامية، بحيث لا يكون الاعتماد فقط على الوسائل والتقنيات الحديثة كأجهزة التكييف وما شابه، لما لها من أضرار صحية إلى جانب أعبائها الاقتصادية الكبيرة والتي ربما تتفق مع الظروف الحالية لبعض المجتمعات العربية، ولكنها من جانب آخر لا تتفق مع الظروف الاقتصادية السائدة في الكثير من المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى.

الخلاصة:

لقد قدمت هذه الورقة البحثية رؤية جديدة لبعض ضوابط العمارة والعمران، وهذه الرؤية أساسها القرآن الكرىم المصدر الرئيس للتشريع الإسلامى، وهى بذلك توضح أن القرآن الكرىم قد وضع قواعد عامة فى العديد من مسائل وقضايا عمارة الأرض، والتي تصلح لأن تكون منهجا يتم اتباعه فى كل زمان ومكان، مع ترك مساحات كبيرة للإبداع الفنى والتقنى مادام لا يتعارض مع القواعد الأساسية للتشريعة الإسلامية.

إن الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض لا تمنع من الأخذ والتفاعل مع الحضارات الأخرى، والتاريخ الإسلامى خير شاهد على ذلك، ولكن من جانب آخر فإن هذه الرؤية

(١) انظر على سبيل المثال:

Watson, D. (1983). Climatic design. McGraw- Hill Book Company, New York.

أيضا تحض على أن يكون للمجتمع المسلم تميزا وتفردا عن غيره من المجتمعات ظاهرا وباطنا، وهنا يتجلى دور العمارة والعمران لتكون هي الوعاء المادى المعبر عن هذه الرؤية المتميزة، وهو ما حاولت هذه الورقة أن توضحه وتلفت الأنظار اليه.

إن أهم ما يميز الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض أنها مؤسسة على تقوى الله، فعمارة الأرض في الإسلام تعتبر عبادة، كما أن هذه الرؤية تحذر وبشدة من فكرة الاستكبار والعلو في الأرض والممارسات الإعمارية الفاسدة، إنها رؤية تجعل للعمارة والعمران دور كبير في الارتقاء بأخلاقيات المجتمع، حيث يصبح المعمار وسيلة لتهيئة البيئة المناسبة لعبادة الله.

مراجع البحث

- ١- القرآن الكريم.
- أولاً: التفسير والمعاجم اللغوية؛
- (٢) 'الجامع لأحكام القرآن' للإمام القرطبي.
- (٣) تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني.
- (٤) التفسير الميسر (إعداد نخبة من العلماء) (١٤١٩ هجرية). وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية.
- (٥) تفسير القرآن الكريم للحافظ بن كثير
- (٦) الحافظ بن كثير (١٩٨٢). قصص الأنبياء. دار الحديث، القاهرة.
- (٧) المعجم الوجيز (٢٠٠٠). طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، جمهورية مصر العربية.
- (٨) معجم القاموس المحيط الفيروزابادى.
- ثانياً: المراجع العربية؛
- (٩) أحمد محمد السعد (٢٠٠٣). ضوابط بناء المساكن في الفقه الإسلامى. مؤتمر الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن.
- (١٠) ابن قيم الجوزية (بدون تاريخ). حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح. دار عسر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة
- (١١) البخلاخى أمحمد (١٩٩٤). فاس ومراكش.. مدن لها تاريخ. مجلة المنهل - عدد (٥١٩)، جدة.
- (١٢) توفيق محمد سع (بدون تاريخ). قيم حضارية فى القرآن الكريم (ج١). القاهرة.
- (١٣) جريدة اللواء الإسلامى، عدد ٩٦، سنة ١٩٨٣، القاهرة.
- (١٤) خالد عزب (١٩٩٧). تخطيط وعمارة المدن الإسلامية. كتاب الأمة، عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. عدد (٥٨) - السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والمسجد وعبر الشارع، وداخل الباني المعاصرة*.

- (١٥) دافيد مالين رودمان ونيكولاي لينسن (ترجمة: شويكار ذكي). (١٩٩٧). ثورة نبي عالم البناء. الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- (١٦) دونالد هيل (ترجمة: أحمد فؤاد باشا) (٢٠٠٤). العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية. سلسلة عالم المعرفة - عدد (٣٠٥)، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت.
- (١٧) زغلول النجار (١٩٩٢). اكتشاف مدينة إرم ذات العماد التي تحدث عنها القرآن الكريم منذ ١٤ قرناً. جريدة الأهرام المصرية (١٠/٤/١٩٩٢).
- (١٨) زغلول النجار (٢٠٠٢). من أسرار القرآن. جريدة الأهرام المصرية (٧/١٠/٢٠٠٢).
- (١٩) شفيق العوضي الوكيل، ومحمد عبدالله سراج (١٩٨٥). المناخ وعمارة المناطق الحارة. القاهرة.
- (٢٠) صادق أحمد صادق (١٩٩٩). التشكيل الفراغي وتأثيره على علاقة المسجد بالبيئة العمرانية. من سجل ندوة عمارة المساجد (ج٣)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
- (٣١) عبد الجليل أبو ضمرة (٢٠٠٣). فقه الإعمار وضوابطه في الفقه الإسلامي. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن.
- (٣٢) فؤاد عمر توفيق (١٩٨٦). أوضاع تخطيط الإسكان على سفوح الجبال بمدينة مكة المكرمة. كتاب أبحاث ندوة 'الإسكان في المدينة الإسلامية' بأنقرة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ص ١٢٧-١٣٤.
- (٣٣) محمد أحمد سليمان (١٩٩٩). سباحة فضائية في آفاق علم الفلك. مكتبة العجيري، الكويت.
- (٣٤) يحيى وزيرى (١٩٩٠). خواطر الشيخ الشعراوي حول عمران المجتمع الإسلامي. مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
- (٣٥) يحيى وزيرى (١٩٩٢). التعمير في القرآن والسنة. القاهرة.
- (٣٦) يحيى وزيرى (٢٠٠٢). المجتمع وثقافة العمران. مؤسسة دار الشعب، القاهرة.
- (٣٧) يحيى وزيرى (٢٠٠٣). التصميم المعماري الصديق للبيئة. مكتبة مدبولي، القاهرة.
- (٣٨) يحيى وزيرى (٢٠٠٤). العمارة الإسلامية والبيئة. سلسلة عالم المعرفة - عدد ٣٠٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- (٣٩) يحيى وزيرى (٢٠٠٤). دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم. كتاب أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة بديي، المجلد الثالث، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- (40) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin.
- (41) Taj, H.M. (1999). The influence of Qibla on street line orientation in Islamic Cities. Proceedings of the symposium on Mosque Architecture. Vol.3B, pp. 137-181, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.
- (42) Watson, D. (1983). Climatic design. McGraw- Hill Book Company, New York.
- (43) Yehia Wazeri (2001). The natural cooling system?an approach for improving the thermal performance of buildings in North Africa (Ph.D.). Institute of African Research and Studies, Cairo University, pp.95-97.